الفصل التاسع

مراكز الحضارة الإسلامية

- المدينة المنورة.
- دمشق.
- بغداد.
- عواصم مصر الإسلامية.
- القاهرة.
- القيروان.
- قرطبة.

المدينة المنورة

كانت المدن الإسلامية مراكز الإشعاع الفكرى والحضارى للمسلمين، وقد أسهمت المدن الإسلامية بدور أساسى فى إيصال الحضارة الإسلامية إلى الآفاق فى الشرق والغرب.

ومدينة رسول الله ﷺ هى العاصمة الإسلامية الأولى التى اتخذها منذ وصوله إليها مهاجرًا من مكة مقرًا للإسلام وحاضرة للدولة الإسلامية.

وفى المدينة المنورة استقر الإسلام والمسلمون، واستكمل الوحى رسالته إلى النبى ﷺ، وألف الإسلام بين قلوب أهلها، وبنى النبى فيها الدولة الإسلامية، ومنها خرج مجاهدًا غازيًا فى سبيل الله، وفيها صعدت روحه إلى بارئها، حيث ضم ثراها رفاته الطاهر.

كانت الهجرة إلى يثرب نقطة تحول فى تاريخ الأمة الإسلامية، كما كانت تحديدًا عمليًا لقيام الدولة الإسلامية. فيثرب قبل الإسلام كانت واحدة من المراكز الحضارية فى إقليم الحجاز، ولها وضعها الاقتصادى الذى نافست به مكة والطائف، كما كان لها ثقلها السياسى، ومن ثم كان الصراع بينها وبين جيرانها على الزعامة السياسية لإقليم الحجاز.

وكان التكوين البشرى فى يثرب يختلف عما أصبح عليه بعدما هاجر رسول الله ﷺ إليها. فقد سكنها مع الأوس والخزرج القبائل اليهودية التى وصلت إلى يثرب بعد تخريب بين المقدس على يد القائد الرومانى تيتوس. أما الأوس والخزرج فقد هاجروا إليها واستقروا فيها من اليمن بعد اضطراب أحوالها عقب تهدم سد مأرب[1].

عاشت القبائل العربية الأوس والخزرج فترات عصيبة فى يثرب؛ فقد كانوا موالى لليهود، ويذكر ابن هشام أخبار الحروب الكثيرة التى عانى منها أهل يثرب سواء ما كان بينهم وبين اليهود، أم ما كان بين الأوس والخزرج من هذه الحروب، فوقعت الحرب بين الأوس والخزرج عندما قتل يهودى جارا للخزرج، فاقتتلوا قتالا شديدا

(١) ابن هشام: سيرة رسول الله. القسم الأول. ص ١٣.

كان الظفر فيه للخزرج على الأوس. ويقول ابن هشام: إنه كانت بينهم حروب كثيرة منها حرب داحس والغبراء وغيرها[1].

وكان وصول النبى ﷺ والمسلمين معه إلى يثرب نهاية للمعاناة والحروب وبداية لمرحلة جديدة طالما تاقت إليها المدينة، بل إن أهلها كانوا يتطلعون إلى دعوة النبى ﷺ، بل بايعوه على الحماية والنصر، ويبدو أن أهل يثرب من الأوس والخزرج كانوا قد سئموا الحروب والحياة غير المستقرة فلم تعرف يثرب قبل الإسلام أى نوع من الاستقرار السياسى أو التنظيم الإدارى، ذلك أن الحروب المستمرة، والتنافر فى عناصر السكان، والتنافس بينها وبين المراكز التجارية المجاورة أدى إلى تدهور الأوضاع فيها، والتى انتهت بوصول المسلمين إليها واستقرار الإسلام فيها[2].

يحدثنا ابن هشام أن أخبار الإسلام بدأت تصل إلى يثرب وخاصة بعد أن عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل وكان هذا بدء إسلام الأنصار. قال ابن إسحق: فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه، وإعزاز نبيه وإنجاز وعده له، خرج رسول الله ﷺ فى الموسم الذى لقيه فيه النفر من الأنصار فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع فى كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقى رهطًا من الخزرج أراد الله بهم خيرا.

ولما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: أمن موالى اليهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن الكريم.

وانصرفوا إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا، فلما قدموا يثرب ذكروا لأهلها رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ[3].

ثم كانت البيعة التى اشترك فيها رجال من الأوس ورجال من الخزرج تمهيدا لهجرة الرسول ﷺ إلى يثرب.

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية. القسم الأول ص ١٨٨.

(٢) قارن: أحمد إبراهيم الشريف: دولة الرسول فى المدينة. الكويت ١٩٧٢.

(٣) ابن هشام: سيرة رسول الله. القسم الأول. ص ٤٣٠.

وحاولت قريش أن تثنى أهل يثرب عن البيعة، مهددين إياهم بالحرب، ومنزلين ببعض رجالهم العذاب، إلا إنهم لم يهنوا ولم يضعفوا وإنما ثبتوا على موقفهم من تأييد رسول الله ﷺ حتى تمت الهجرة.

فلما تنزل الأمر لرسول الله ﷺ بالهجرة أمر المسلمين بالخروج إلى يثرب، يقول ابن إسحق: فلما أذن الله تعالى له ﷺ فى الخروج، وبايعه هذا الحى من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه وأوى إليهم من المسلمين، أمر رسول الله ﷺ أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، واللحوق بإخوانهم من الأنصار وقال: إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانًا ودارًا تأمنون بها، فخرجوا أرسالاً وأقام رسول الله ﷺ ينتظر أن يأذن له ربه فى الخروج من مكة والهجرة إلى يثرب[1].

والهجرة تعنى انطلاقة المسلمين لتأسيس دولة الإسلام فى يثرب، ففيها أسس رسول الله ﷺ مسجده، ومنه سرت إشعاعات الحضارة الإسلامية. فتحولت يثرب إلى مدينة إسلامية اتخذها المسلمون قاعدة لهم، وفيها وضع الرسول ﷺ أسس البناء الاجتماعى والسياسى والاقتصادى للدولة الإسلامية. وآخى بين المهاجرين والأنصار وأصدر دستور المدينة، ووضع نواة النظم الإدارية للدولة الإسلامية، كما أرسى قواعد الاقتصاد الإسلامى.

وكان تأسيس المسجد النبوى فى المدينة إيذانًا بتحويلها إلى مدينة إسلامية ومن ثم أصبح بناء المسجد هو الأصل فى إقامة المدن والعواصم الإسلامية، وعلى غرار مسجد النبى ﷺ بنيت مساجد المسلمين فى الأقاليم التى فتحتها جيوش الإسلام.

قال ابن إسحق: أمر رسول الله ﷺ أن يبنى مسجده، وعمل فيه بيديه ترغيبًا للمسلمين فى المشاركة فى العمل فيه، وأسهم المهاجرون والأنصار ودأبوا على العمل فيه وقام رسول الله ﷺ فى بيت أبى أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه[2].

والمسجد النبوى بسيط فى بنائه، يقول الدكتور أحمد فكرى: أغلب الظن أن

---

(١) المصدر نفسه: ص ٤٨٦.

(٢) ابن هشام: سيرة رسول الله. القسم الأول ص ٤٦٨.

المسجد حينذاك كان يقتصر على رحبة واسعة، تحيط بها جدران أربعة، وأنه لم يكن له سقف أول الأمر، إلا أن الناس شكوا إلى رسول الله ﷺ شدة الحر، فأقام لهم ظلة وجعل فى المسجد سوارى من جذوع النخل[1].

واتخذ رسول الله ﷺ من مسجده مكانًا للقاء المسلمين، وجامعة يتعلمون فيها أمور دينهم وأحوال دنياهم، وفيه كان رسول الله يتلقى الوحى فيعلم المسلمين ما ألقى إليه من ربه.

وفى المسجد النبوى كانت تعقد المعاهدات، وتمضى العهود، ويعلن الجهاد، وتقلد الرايات، وينظر فى المظالم، وتستقبل الوفود، وكل هذا يعكس رسالة المسجد أو ما يجب أن تكون عليه.

ويذكر ابن إسحق أنه لما اطمأن رسول الله ﷺ بالمدينة، واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين، واجتمع الأنصار، استحكم أمر الإسلام، فقامت الصلاة، وفرضت الزكاة، وقامت الحدود، وفرض الحلال والحرام، وتبوأ الإسلام بين أظهرهم، واتخذ المسلمون الأذان نداء للصلاة، دليلاً على رسوخ قدم الإسلام وظهوره فى المدينة[2].

وعاشت مدينة رسول الله ﷺ عصرًا من الاستقرار السياسى لم تعرفه من قبل، كما شهدت فترة من الرخاء الاقتصادى، فقد أصبحت رءوس الأموال ومصادر الدخل فى أيدى أهلها، وخاصة بعد إجلاء اليهود عنها، وتهيأت للدفاع عن دين الإسلام بل أخذت على عاتقها حماية هذا الدين ونشره خارج شبه الجزيرة العربية.

وظلت مدينة رسول الله ﷺ عاصمة للخلافة الإسلامية وحاضرة للمسلمين خلال عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين، وخبرت الأحداث العنيفة التى وقعت فى عصر عثمان بن عفان رضى الله عنه، وعبرت محنة الأمة يوم قتل عثمان رضى الله عنه إلى أن انتخب الإمام على كرم الله وجهه إمامًا للمسلمين، ولما غادرها إلى العراق فارقتها الخلافة، وزال عنها مقر الحكم، إلى دمشق ومنها إلى بغداد.

---

(١) أحمد فكرى: المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها. جـ ١ ص ص ١٦٩، ١٧٠.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية، القسم الأول، ص ص ٥٠٠ وما بعدها.

دمشـــق

دمشق من المدن القديمة فى بلاد الشام، وقلعة من قلاع العلم والحضارة يشهد بذلك تاريخهـا القديم، وقد توالى على دمشـق كثير من الحـكام فاهتموا بها، وجعلوا منها قبلة للعلماء، حكمها الآراميون، واليونانيون والرومان والبيزنطيون، ودخلها المسلمون فاتحـين فى عصر الفـاروق عمر لتبدأ مرحلة جديدة فى تاريخها، ولتسـهم فى بناء صرح الحضارة الإسلامية[1].

وعرفت دمشـق أيضًا العقائد الدينية المختلفة، ففيها ظهرت الوثنية، وفيها أيضًا كانت المسـيحية، وحين تحولت إلى مدينة إسلامية عز فيها الإسلام، وارتفع شأنه، وازدادت أهميـة دمشـق حين غدت حاضرة للخلافة الإسـلامية فـى عهد الأمويين فشهدت بذلك نقلة تاريخية عظيمة، وكان عصرها الذهبى، فازدهرت حضارة الإسلام فيها وانطلقت منها إشعاعات الفكر ووفد عليها العلماء والمترجمون والفقهاء وارتفعت المبانى الإسلامية الشامخة وعلى رأسها المسجد الأموى.

ودمشـق بحكم موقعها الجغرافى ملتقى للحضـارات، فهى منذ القدم البوتقة التى انصهـرت فيهـا حضارات الشـرق القديم، التى وفـدت عليها من العـراق ومن بلاد الحيثيين ومن مصر، وظل دورها المميز كأحد مراكز الحضارة علامة بارزة فى تاريخها، فهـى حين تقدمت الجيوش الإسـلامية الفاتحة فى سـورية كانت مـن مراكز الفكر والحضارة المسـيحية، فقد كان عليها نسطاس بن نسطورس من قبل البيزنطيين، وقد دخلها المسلمون صلحًا، فيذكر الطبرى أن المسلمين دخلوا المدينة وصالحوا أهلها على المقاسمة، الدينار والعقار، وكتبوا بالفتح والظفر إلى خليفة المسلمين فى المدينة[2].

وكان بناء المسـجد الأموى نقطة تحول فى تاريخ المدينة، إذ تحولت إلى واحدة من أهم المدن الإسلامية، ويعد المسجد الأموى أهم الآثار الإسلامية بها، ويقول ابن جبير:

---

(١) عن دمشـق ومكانتها الحضارة انظر: نجيب ميخائيل: الشـرق الأدنـى القديم. ص ٤٥٦ وما بعدها.

(٢) الطـبرى: تاريخ الرسـل والملـوك. جـ ٣ ص ٤٤١، وقارن فتحية النبراوى: دراسـة فى عصر الخلفاء الراشدين. ص ١٣٢.

إن المسجد الأموى من أشهر جوامع الإسلام حسنًا، وإتقان بناء وغرابة صنعة، واحتفاظا وتنميقا وتزيينا، وشهرته المتعارفة فى ذلك تغنى عن استغراق الوصف فيه[1].

ويروى أن المسجد أصلاً هو ما اختطه أبو عبيدة بن الجراح أحد قادة الفتح، وكان قد دخل المدينة بعد فتحها صلحًا عام ١٣ هـ/ ٦٣٤ م واستولى على النصف الشرقى للكنيسة المسيحية بها وصيره مسجدًا، وظل النصف الغربى بأيدى المسيحيين وذلك وفقًا لشروط الصلح.

ولما أراد الوليد بن عبد الملك أن يبنى المسجد الأموى استولى على النصف الغربى من الكنيسة وعوض المسيحيين عنه بمال عظيم فرضوا ذلك، وهدمت الكنيسة وأقيم مكانها مع مسجد أبى عبيدة المسجد الأموى وكان ذلك عام ٨٧ هـ/ ٧٠٦ م.

وفى رواية أخرى أن المسجد أقيم مكان معبد وثنى قديم للإله جوبتر، حوله الإمبراطور ثيودور عام ٣٧٩ م إلى كنيسة عرفت باسم كنيسة القديس يوحنا، فبنى أبو عبيدة بن الجراح المسجد الأول فى دمشق، فلما جاء الوليد بن عبد الملك أرسى مسجده مكان المعبد والجامع والكنيسة معًا.

ويرى علماء الآثار أن المسجد الأموى فى دمشق بنى كله دفعة واحدة، ولم يدخل فى بنائه الكنيسة أو المعبد، كما لم يكن بناؤه استكمالاً لبناء سابق، وذلك أن الوليد بن عبد الملك بناه دفعة واحدة، فكان من أكبر مساجد الإسلام، وله طابعه الخاص.

والمسجد الأموى من المساجد الجامعة العظيمة فى الإسلام. وقد كان موضع عناية واهتمام الخلفاء والملوك والسلاطين والحكام فزادوا فيه، ويحتل المسجد الأموى فى دمشق مكانة بارزة فى تاريخ الحضارة الإسلامية فهو الذى حول دمشق إلى مدينة تتوق إليها الأنظار ويؤمها العلماء ورجال الدين، ويفد إليها طلاب العلم من كل مكان، وقد ظلت مدينة دمشق حاضرة الشام عاصمة للخلافة والمسلمين إلى انتهاء الدولة الأموية. وشهدت دمشق المراحل المختلفة لتاريخ المسلمين، فقد عاصرت الدولة العباسية، وفيها ازدهر العلم ووفد إليها العلماء المسلمون المعروفون، وفى عهد الأتابكة كان لدمشق دور عظيم فى حفظ الحضارة الإسلامية، والدفاع عن الإسلام، وكان لحكام

(١) د. أحمد فكرى: المدخل فى مساجد القاهرة. ص ٢١٦.

دمشق وخاصة نور الدين محمود دور عظيم فى مواجهة الصليبيين الذين احتلوا أرض الإسلام، وكان لاتحاد مصر والشام اليد الطولى فى القضاء على الوجود الصليبى.

وفى عصر المماليك كان لدمشق مكانة عظيمة بين حواضر الإسلام فوفد عليها العلماء المسلمون الذين تركوا بغداد أمام الغزو المغولى فاستقبلتهم دمشق وفيها استقر رحالهم، وظهرت إسهاماتهم العلمية والفكرية فى بلاد الشام.

بغداد

فكر العباسيون فى اتخاذ عاصمة جديدة للخلافة، فبدأ حكمهم من الكوفة ثم انتقلوا إلى الحيرة فالأنبار حيث بنى أبو جعفر المنصور مدينة الهاشمية، ويقول ابن طباطبا: إن المنصور بعد أن بنى الهاشمية كره سكناها وذلك لمجاورة أهل الكوفة فإنه كان لا يأمنهم على نفسه، وكانوا قد أفسدوا جنده[1].

وشرع الخليفة يبحث عن مكان يصلح أن يكون عاصمة للدولة العباسية، فاختار مكان بغداد، وتروى المصادر أهمية المكان الذى وقع عليه الاختيار، مما أدى إلى حرص الخليفة على بنائها فى ذلك الموضع، فقيل يا أمير المؤمنين تكون على الصراة بين دجلة مع الفرات فإن حاربك أحد كانت دجلة والفرات خنادق لمدينتك، ثم إن الميرة تأتيك فى دجلة من ديار بكر تارة ومن البحر والهند والصين والبصرة تارة أخرى، وفى الفرات من الرقة والشام. وتجيئك الميرة أيضًا من خراسان وبلاد العجم فى شط تامرا. وأنت يا أمير المؤمنين بين أنهار لا يصل عدوك إليك إلا على جسر أو قنطرة، فإذا قطعت الجسر أو ضربت القنطرة لم يصل إليك عدوك وأنت متوسط للبصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد، وأنت قريب من البر والبحر والجبل[2].

وبغداد هو الاسم القديم للمدينة، وتعرف أيضًا ببغدان، وقد فسر اللغويون معناها فقالوا: هى كلمة آرامية معناها سوق القثم أو كلمة فارسية تعنى بستان الله.

---

(١) ابن طباطبا. الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٦١.

(٢) نفس المصدر ص ٢٩٤.

وعرفت باسم الزوراء وقيل كان ذلك لأن قبلتها غير مستقيمة يحتاج المصلى فى مسجدها إلى الانحراف إلى اليسار. كما سميت بمدينة المنصور، ودار السلام، وقيل إنها مدينة مباركة مسعودة[1].

وتخطيط بغداد مما استحدث فى تخطيط المدن الإسلامية فقد جعلها أبو جعفر المنصور مدورة، وجعل قصره فى وسطها ويحيط به قصور القواد ورجال الدولة، ثم تقوم الأسوار. وكان لبغداد سوران، كما كانت مقسمة إلى أربعة أقسام متساوية، ولها أربعة أبواب، باب الكوفة وباب البصرة وباب خراسان وباب الشام.

وبنى المنصور بها جامعه المشهور، واستغرق بناء المدينة عامًا كاملاً من ١٤٥ : ١٤٦ هـ، ويذكر ابن طباطبا أن تكاليف بنائها بلغت أربعة آلاف ألف وثمانمائة وثلاثين درهمًا[2].

وعمرت المدينة وازدحمت بالناس ومن ثم أقطع الخليفة قواده وعماله القطائع خارج أسوار بغداد ثم أمر ببناء الرصافة وجعلها ثكنات للجيش.

واهتم خلفاء بنى العباس ببغداد اهتمامًا بالغًا، وازدهرت العاصمة العباسية وكانت من أعظم حواضر العالم، كما كانت منارة للعلم والمعرفة، ومركزًا للفكر والثقافة تمتد إشعاعاته الحضارية لتضىء الدنيا ولاسيما بعد النهضة العلمية والفكرية التى شهدتها المدينة فى عصر المأمون، فقد استطاع علماء بغداد وأساتذتها نقل كثير من العلوم القديمة إلى العربية.

وكانت مؤسساتها العلمية منائر هدى، فدار الحكمة والمدرسة النظامية كان لهما الباع الطولى فى إثراء الفكر والثقافة، وكان لعلمائها دور مشهود فى حفظ التراث القديم ونقله إلى اللغة العربية.

وقد ظلت بغداد حاضرة للإسلام والمسلمين على مدى خمسة قرون، حافظت على الحضارة الإسلامية، وظلت مركزا من أهم مراكزها، وقاعدة للخلافة الإسلامية حتى زحف المغول عليها وعاثوا فيها فسادا، وقضوا على مكانتها الحضارية عام ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م.

---

(١) انظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان. جـ ١ ص ص ٤٥٧: ٤٦٧.

(٢) ياقوت الحموى: معجم البلدان. جـ ١ ث ٤٥٩.

عواصم مصر الإسلامية

الفسطاط :

أنشأ المسلمون الفسطاط بعد أن فتحوا الإسكندرية عاصمة مصر البيزنطية وصالحوا أهلها، وكان بناء الفسطاط المدينة الإسلامية الأولى فى مصر وأفريقية عام ٢١ هـ/ ٦٤١ م.

وهناك آراء كثيرة حول هذا التاريخ فيذكر البلاذرى أن بناء الفسطاط كان بعد فتح بابليون على خلاف جمهور المؤرخين الذين يؤكدون أن بناء الفسطاط كان قبل فتح بابليون، والراجح أنه كان بعد أن فتحت مدينة الإسكندرية.

ويحاول بعض المستشرقين أن يقلل من قيمة بناء الفسطاط، وأنه لم يكن المقصود عند بنائها أن تكون مدينة عظيمة أو أن تكون عاصمة المسلمين، والواقع أن الفسطاط شأنها شأن العواصم الإسلامية بنيت لتكون مركزًا للإسلام والمسلمين، وقلعة لنشر الدين والحضارة الإسلامية.

يقول البلاذرى: إن الزبير هو الذى اختط المدينة، وبنى فيها دارًا وجعل فيها السلم الذى تسلق عليه جدار حصن بابليون وقت حصاره، ويرى بتلر Butler أن الذين اختطوا المدينة الجديدة كانوا من أقباط مصر ويعتمد فى ذلك على أن العرب لم يكن لديهم علم بفن تخطيط وبناء المدن[1]. بينما يدلل تخطيط المدينة مما تقدمه المصادر العربية على أنه كان بسيطًا وأن ذلك كان فى إمكان العرب فقد بنوا من قبل البصرة فسطاط العراق والكوفة وبنو المسجد النبوى فى المدينة[2].

ويقول القلقشندى: اختلف فى سبب تسميتها بالفسطاط، فقال ابن قتيبة: إن كل مدينة تسمى فسطاطًا ولذلك سميت مصر الفسطاط. وقال الزمخشرى: الفسطاط اسم لضرب من الأبنية فى القدر دون السرادق، والذى عليه الجمهور أنه سمى بذلك لمكان

---

(١) الفريد ج. بتلر: فتح العرب لمصر. ص ١٩٥.

(٢) ياقوت الحموى: معجم البلدان. جـ ٤، ص ص ٢٦١ وما بعدها.

فسطاط عمرو بن العاص رضى الله عنه يعنى خيمته[1] وقال المقريزى قال الجوهرى: إن الفسطاط بيت من الشعر ومنه فسطاط مصر[2].

وقيل إن الفسطاط مأخوذة من اللفظة الرومانية Fassatum وكانت شائعة عند الفتح وتطلق على العسكر، ومن ثم أطلقها المسلمون على مدينتهم التى أقاموها عاصمة لمصر.

أما موقع العاصمة الجديدة لمصر الإسلامية فيحدده المقريزى بقوله: أعلم أن موضع الفسطاط الذى يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاء ومزارع فيها بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بجبل المقطم ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بقصر الشمع وبالمعلقة ينزل به شحنة الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة[3].

وفى العاصمة الجديدة اختط عمرو بن العاص المسجد العتيق مكان فسطاطه الذى تركه عندما ذهب لفتح الإسكندرية، وابتنى داره الصغرى بالقرب من المسجد، وأخذ الناس فى الاختطاط حوله فتنافست القبائل فى المواضع والاختطاط. ويذكر القلقشندى أن عمرو ابن العاص ولى على الخطط أربعة من رجاله لتنظيم عملية استقرار القبائل هم معاوية بن حديج التجيبى، وشريك بن سُمَى وعمرو بن قحزم الخولانى وجبريل بن ناشرة المعافرى، ففصلوا بين القبائل وأنزلوا الناس منازلهم، فاختطوا الخطط وبنوا الدور والمساجد وعرفت كل خطة بالقبيلة أو الجماعة التى اختطتها أو بصاحبها الذى اختطها[4].

ويذكر القلقشندى تفصيلا لأسماء الخطط والقبائل والدور التى أقيمت فى الفسطاط، ومن أهم تلك الخطط كانت خطة أهل الراية وهم جماعة من قريش والأنصار وخزاعة وأسلم وغفار وأشجع وجهينة وثقيف ودوس وعبس بن بغيض وجرش بنى كنانة وليث بن بكر.

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى. جـ ٣ ص ٣٢٦.

(٢) المقريزى: الخطط جـ ١ ص ٢٨٦.

(٣) المقريزى: الخطط جـ ١ ص ٢٨٦.

(٤) ياقوت الحموى: معجم البلدان. جـ ٤ ص ٢٦٣. وقارن: القلقشندى: صبح الأعشى. جـ ٣ ص ص ٣٢٧: ٣٢٩.

ومنهـا أيضًـا خطط مهرة وتجيـب ولخم واللفيـف، وغافق، وخـولان وبنى الكلاع والمعافر وغيرها[1].

وأما الدور فكانت كبيرة ذكرها القلقشـندى ومن أهمها دار عمرو بن العاص، ودار الزبير بن العوام ودار قيس بن سعد الأنصارى، ودار سعد بن أبى وقاص[2].

وكان أمـراء مصر ينزلون بالفسـطاط، ولم يكن لهم فـى أول الأمر دار إمارة وكان عمـرو بن العاص ينزل بداره بالقرب من الجامع، ولم يزل كل أمير ينزل بداره حتى كانـت ولاية عبد العزيز بن مـروان الذى تولى على مصر فى عهد أخيه عبد الملك بن مـروان فاتخـذ دارًا عظيمة سماها دار الذهب وهى الدار التـى هرب إليها مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية حيث تبعه على بن صالح فقتله، وتولى حكم مصر من قبل العباسيين فابتنى دارا للإمارة.

العسـكر:

اتخـذ الوالى العباسـى على مصر أبـو عون بعد أن تخلص مـن آخر خلفاء بنى أمية عاصمة جديدة للبلاد سماها العسـكر عام ١٣٥م/ ٧٥٢ م وقد كبرت العسـكر واتسـعت، ويذكر المقريزى أن النـاس ابتنوا الدور فى العسـكر واتصل بناؤه وبناء الفسـطاط. وبنيت فيه دار الإمارة والمسـجد الذى عرف بجامع العسـكر، ثم عرف بجامع سـاحل الغلة وعملت الشـرطة أيضًا فى العسـكر وقيل لها الشـرطة العليا وصارت العسـكر مدينة ذات محال وأسواق ودور عظيمة واتصلت مبانيها بالفسطاط حتى صارتا مدينة واحدة، وعلى الرغم من بناء العسكر ظلت الفسطاط مدينة عامرة، وزادت أهميتها فى العصر الطولونى على الرغم من اتخاذ أحمد بن طولون للقطائع، عاصمة لمصر[3].

---

(١) القلقشندى المصدر السابق جـ ٣ ص ٣٢٨ - ٣٢٩.

(٢) القلقشندى: المصدر السابق. جـ ٣ ص ص ٣٢٨: ٣٢٩.

(٣) ياقوت الحموى: معجم البلدان. جـ ٤ ص ١٢٣. وانظر: القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٣ ص ص ٣٢٩ - ٣٣١.

القطـائع :

يقول القلقشندى: إن أحمد بن طولون اختط قصره المعروف بالميدان فيما بين قلعة الجبل الآن والمشـهد النفيسـى، وذلك عام ٢٥٦ هـ/ ٨٦٩ م، واختط الناس حوله، واقتطع كل أحد قطيعة ابتنى بها، فكان يقال: قطيعة السـودان، وقطيعة هارون بن خمارويه، وقطيعة الفراشـين، فعرف ذلك المكان بالقطائـع وتزايدت العمارة، حتى اتصلت بالفسـطاط وصار الـكل بلدا واحدا. وحكم الإخشـيديون بعد الطولونيين من القطائع، واهتموا بإصلاح ما أفسده الجيش العباسى بقيادة محمد بن سليمان الكاتب عـام ٢٩٢ هـ/ ٩٠٤ م وأهملت دار الإمارة التى بناها على بـن صالح[1]. وعلى الرغم من ذلك فالمصادر تذكر الفسطاط وعمارتها وما شيد بها من آدر أنيقة ومساجد قائمة، وحمامات باهية، ومستنزهات رائعة. وذكر ابن حوقل أنه شاهد بالفسطاط دارا تعرف بـدار ابن عبد العزيز بالموقف لمن فيها من السـكان فى كل يـوم أربعمائة راوية ماء، وفيها خمسة مساجد وحمامان وفرنان[2].

ويروى القلقشـندى: ولم يزل الفسـطاط زاهى البنيان، باهى السكان إلى أن كانت دولة الفاطميين بالدار المصرية، وعمرت القاهرة وما حولها، فخلا من أكثر سـكانه، وتتابع الخراب فى بنيانه. واحرق الفسـطاط فى عهد العاضد يوم خاف الوزير شـاور عليها من الفرنجة فأضرم النار فى المدينة فاندثرت ولم يبق منها شىء.

القـاهرة :

المعزيـة القاهرة بناها القائد جوهر الصقلى فى ٣٥٨ هـ/ ٩٦٨ م بعد دخول القوات الفاطميـة مصر من الشـمال الأفريقى. يقول صاحب صبح الأعشـى: وكانت مصر قد ضعف عسكرها لما دهمها من الغلاء والوباء، فجهز المعز قائده جوهر، فبرز إلى المدينة وقـاده من بلاد أفريقية فى أكثر مـن مائة ألف وما يزيد على ألف صندوق من المال، وخرج المعز لتشييعه فقال للمشايخ الذين معه: لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر،

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٠٤.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ٣ ص ٣٢٣.

وليدخلنها بالأردية بغير حرب ولينزلن فى خرابات ابن طولون ويبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا. وسار جوهر حتى دخل مصر وتسلمها لسبع عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة، ونزل فى مناخه من سفره موضع القاهرة الآن واختط القصر وأخذ فى بنائه وعمارة القاهرة واختط الناس حوله[1].

ولما استقر عسكر جوهر، واختط مدينة القاهرة واختط القصر، واختطت كل قبيلة خطتها، اختطت زويلة حارة زويلة، واختطت جماعة من أهل برقة الحارة البرقية واختطت الروم حارتى الروم البرانية والجوانية، ثم أدار السور حول مبانى قواته، وبنى داخل السور جامعًا وقصرًا، واحتفر الخندق داخل السور من الجهة الشمالية ليمنع اقتحام عساكر القرامطة إليها.

وكان للقاهرة أربعة أبواب ففى الجهة القبلية بابان متجاوران يقال لهما بابا زويلة ومن الجهة البحرية كان لها بابان هما باب النصر وباب الفتوح. وتوالت الزيادات فى الأبواب إلى ثمانية، وعمرت القاهرة بعد جوهر، وكان داخل سور القاهرة يشتمل على قصرين وجامع، يقال لأحد القصرين القصر الكبير الشرقى وهى منازل سكنى الخليفة ومحل حرمه وموضع جلوسه لدخول العساكر وأهل الدولة، وفيه الدواوين وبيت المال وخزائن السلاح وغير ذلك وهذا القصر وهو الذى أسسه جوهر وزاد فيه المعز ومن بعده من الخلفاء، والقصر الثانى هو القصر الغربى وكان الخليفة ينتقل إليه فى أيام النيل للنزهة على الخليج. وكان يقال لمجموع القصرين القصور الزاهرة ويقال للجامع جامع القاهرة والجامع الأزهر[2].

وقد ظلت القاهرة مدينة خاصة للفاطميين والأرستقراطية العسكرية الفاطمية فترة من الزمن، وكان الدخول إليها لقاطنى مصر بإذن خاص يخول لهم الدخول من إحدى بوابات المدينة.

---

(١) ياقوت الحموى: معجم البلدان. جـ ٤ ص ٣٠١. وانظر: القلقشندى المصدر نفسه، جـ ٣ ص ٣٤٤.

(٢) المقريزى: الخطط جـ ١ ص ٣٦٢. يعتمد المقريزى على ابن عبد الظاهر صاحب كتاب الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة.

وفى عهد المستنصر سمح أمير الجيوش بدر الجمالى بعد أن سكن القاهرة الناس من العسكرية والملحية والأرمن وكل من وصلت قدرته إلى عمارة بأن يعمر ما شاء فى القاهرة مما خلا من فسطاط مصر.

ويذكر المقريزى أن صلاح الدين بن أيوب بن شادى جعلها مبتذلة لسكن العامة والجمهور، وحط من مقدار قصور الخلافة وأسكن فى بعضها وتهدم البعض وأزيلت معالمه وتغيرت معاهده فصارت خططًا وحارات وشوارع ومسالك وأزقة، ونزل السلطان منها فى دار الوزارة إلى أن اختطت قلعة الجبل فتحول من دار الوزارة إليها[1].

وتخبرنا المصادر أن صلاح الدين انتقل إلى القلعة واتخذها مقرًا لسكناه وهذا يعكس كراهيته الشديدة للإقامة فى قصر الفاطميين.

وقد بلغت القاهرة الأيوبية أعظم اتساع لها، بل إن عاصمة مصر قد شهدت عصرًا زاهرًا من العمران والبناء، وآثار الأيوبيين بل آثار صلاح الدين وحده بالقاهرة تنطق بمدى اهتمامه بالعاصمة المصرية.

ومن أهم الآثار التى خلفها صلاح الدين قلعة الجبل والسور الجديد والسد العظيم، وكانت قلعة الجبل من الإنشاءات العسكرية الهامة التى ميزت عصر صلاح الدين، وقد رأى صلاح الدين أن يحمى البلاد، وأن يقيها غزوات الصليبيين هذا بالإضافة إلى أنه ربما كان متأثرًا بالتقليد المعمارى فى بلاد الشام فقد كانت المدن الهامة تحصنها القلاع.

أمر صلاح الدين بتنفيذ مشروعه ٥٧٣ هـ/ ١١٧٧م، وأناط بهذا المشروع الضخم بهاء الدين قراقوش، إلا أن الأجل لم يمتد به ليرى المشروع كاملاً، فلم يتم البناء إلا فى عهد ابن أخيه الملك الكامل. وقد استمرت قلعة الجبل قاعدة للحكم فى مصر حتى منتصف القرن التاسع عشر.

ومما لا شك فيه أن بناء القلعة أسهم فى اتساع القاهرة وامتدادها إلى الجنوب، هذا بالإضافة إلى إنشاء كثير من المدارس التى ساعدت بشكل ملحوظ على عمران هذه المنطقة من القاهرة. وقد امتد العمران ليشمل القاهرة والفسطاط والعسكر والقطائع.

---

(١) المقريزى: الخطط جـ ١ ص ٣٦٤.

أما السور الجديد فقد كان البدء فى بنائه عام ٥٦٦ هـ/ ١١٧١ م، ويقول: عماد الدين الكاتب الأصفهانى، السكرتير الخاص لصلاح الدين: ولما ملك السلطان مصر وآتاه الله على الأعداء بها النصر، رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منهما سور لا يمنعها ولا قوة لأهلها تحميها وتردها، قالوا لو أفردت كل واحدة بسور احتاجت إلى جند مفرد ونظر مجرد والرأى أن تدير عليهما سورًا واحدًا من الشاطئ إلى الشاطئ ثم يتكل فى حفظها على الله الواحد، فأمر ببناء قلعة فى الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج فى المقطم وانتهى به إلى أعلى مصر ببروج ووصلها بالبرج الأعظم.

يقول العماد الكاتب الأصفهانى: وجدت فى عهد السلطان ثبتا رفعه النواب وتكمل فيه الحساب، وهو دايرالبلدين مصر والقاهرة من ساحل البحر إلى القلعة والجبل تسعة وعشرين ألف وثلثمائة ذراع[1].

ويقول القلقشندى: قال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر: وقياس هذا السور وذلك من باب البحر إلى البرج بالكوم الأحمر تسعة وعشرون ألف ذراع وثلثمائة وذراعان[2].

ويتفق المقريزى مع القلقشندى فى ذكر قياس السور فيقول: هذا السور المحيط بالقاهرة الآن تسعة وعشرون ألف ذراع وثلثمائة ذراع وذراعان بذراع العمل وهو الذراع الهاشمى[3].

ويبدو أن الخلاف فى قياس السور وقع بين المؤرخين بسبب أن الخطة الأولى للسور جاءت فى الثبت الذى ذكره العماد بمقدار ٢٩٣٠٠ ذراع، بينما وصل السور بعد اكتماله إلى ٢٩٣٠٢ ذراع، ويوضح القلقشندى هذا الاختلاف فيذكر أن السلطان عماد الدين صاحب حماة اعتمد فى تاريخه على ذَرْع السور من غير تفصيل ولم يتعرض للذراعين الزائدين[4].

---

(١) البنداري: سنا البرق الشامي. تحقيق فتحية النبراوى ص ١١٩.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا. جـ ٣، ص ٣٥٠.

(٣) المقريزى: الخطط جـ ١ ص ٣٨٠..

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى. جـ ٣ ص ص ٣٥٠ - ٣٥١.

وكلف السلطان صلاح الدين الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى بالقيام على بناء السور فبناه بالحجارة كما هو عليه الآن. وكان بناء هذا السور هو البناء الثالث حول القاهرة، فيقول المقريزى: اعلم أن القاهرة منذ أسست عمل سورها ثلاث مرات، الأولى قام بها القائد جوهر، والمرة الثانية وضعه أمير الجيوش بدر الجمالى فى أيام الخليفة المستنصر، والمرة الثالثة بناه الأمير الخصى بهاء الدين قراقوش الأسدى فى سلطنة الملك الناصر صلاح الدين أيوب أول ملوك مصر[1].

وتوضح خطة صلاح الدين فى بناء السور أنه أراد حماية المدينة وإحكام الدفاع عنها وتأمينها من أخطار الغزو الخارجى، هذا بالإضافة إلى دمج مسئولية الدفاع عن سور مصر وسور القاهرة وتركيز مسئولية هذا الدفاع حتى يتسنى له التفرغ لقضيته الجهاد والحرب ضد الصليبيين.

ويبدو أنه ولعوامل دفاعية وإستراتيجية فكر صلاح الدين فى إقامة هذا السور، ذلك أنه لم ينس غارات الفاطميين المتوالية على مصر من ناحية الصحراء الليبية حيث كانوا يتقدمون سيرًا إلى أن يصلوا إلى شاطئ النيل دون أن يقف فى سبيلهم ما يعرقلهم من الحصون أو الجسور، ومن ثم أقام صلاح الدين هذا السد العظيم، هذا بالإضافة إلى أن صلاح الدين كان يخشى من هجوم قد يشنه الموحدون على مصر وخاصة أن نفوذهم كان قد امتد فى الشمال الإفريقى، واتسعت دولتهم لتجاور مصر على حدودها الغربية[2].

والسد العظيم من أهم الإنشاءات الدفاعية فى عصر صلاح الدين، وأقامه على الضفة الغربية للنيل. ويخبرنا ابن جبير بأن هذا السد مشروع جليل لا يقدم عليه إلا ملك متنور ساهر على أحوال رعيته وبلاده، ووصفه بأنه يحتوى على أربعين عقدًا من أكبر العقود التى شاهدها للقناطر ذات العقود.

لقد اتسعت القاهرة وزاد العمران فيها، وأنشئت لها ميناء جديدة فى بولاق، وأقيمت فيها القصور والمناظر والخانات والفنادق التى صارت فى مطلع القرن الخامس عشر أسواقًا للتجارة. وأنشأ سلاطين المماليك الوكالات والخوانك، وقد كتب المقريزى

---

(١) المقريزى: الخطط، جـ ١، ص ٣٧٩.

(٢) عبد الرحمن زكى: القاهرة تاريخها وآثارها. ص ٦٤.

فصلاً ممتعًا عن الخوانك فقال: الخوانك جمع خانكاه وهى كلمة فارسية تعنى بيت، وقيل: إن أصلها خونقاه أى الموضع الذى يأكل فيه الملك، والخوانك حدثت فى الإسلام فى حدود الأربعمائة من سنة الهجرة وجعلت لتخلى الصوفية فيها لعبادة الله تعالى.

ومن أشهر هذه الخوانك خانقاه ركن الدين بيبرس، ويقول المقريزى: إنه لما كملت هذه الخانقاه رتب فيها أربعمائة صوفى وبالرباط مائة من الجند وأبناء الناس الذين قعد بهم الوقت، وجعل بها مطبخًا يفرق على كل منهم فى كل وقت اللحم والطعام وثلاثة أرغفة من خبز البر، وجعل لهم الحلوى ورتب بالقبة درسًا للحديث النبوى له مدرس وعنده عدة من المحدثين، ورتب القراء بالشباك الكبير يتناوبون القراءة فيه ليلاً ونهارًا ووقف عليه عدة أوقاف بدمشق وحماه ومنية المخلص بالجيزة من أرض مصر وبالصعيد والوجه البحرى والربع والقيسارية بالقاهرة، فلما خلع من السلطنة وقبض عليه الملك الناصر محمد بن قلاوون وقتله أمر بغلقها فغلقت وأخذ سائر ما كان موقوفًا عليها، ومحا اسمه من الطراز الذى بظاهرها فوق الشبابيك وظلت نحو عشرين سنة معطلة ثم إنه أمر بفتحها سنة ست وعشرين وسبعمائة، وكان بناؤها فى سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م[1].

كما ذكر المقريزى أيضًا الأربطة فقال: الرباط، وهو دار يسكنها أهل طريق الله، وقال ابن سيده: الرباط من الخيل فما فوقها، والربط والمرابطة ملازمة ثغر العدو، وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله ثم صار لزوم الثغر رباطا، وربما سميت الخيل نفسها رباطًا والرباط المواظبة على الأمر.

وقال أبو حفص السهروردى فى كتاب عوارف المعارف: وأصل الرباط ما تربط فيه الخيول ثم قيل لكل ثغر يدفع أهله عمن وراءهم رباط، فالمجاهد المرابط يدفع عمن وراءه، والمقيم فى الرباط على طاعة الله يدفع بدعائه البلاء عن العباد والبلاد.

---

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٤١٢.

--ويذكر المقريزى أن الخانقاه أغلقت مدة عشرين عاما، بينما كان الانتهاء من عمارتها عام ٧٠٩هـ، وإعادة فتحها عام ٧٢٦هـ وهذا يساوى سبعة عشر عاما إلا إنا كان أحد التاريخين قد جاء خطأ.

وروى داود بن صالح قال: قال لى أبو سلمة بن عبد الرحمن: يا ابن أخى هل تدرى فى أى شىء نزلت هذه الآية: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [سورة آل عمران الآية: ٢٠٠] قلت: لا، قال يا ابن أخى لم يكن فى زمن رسول الله ﷺ غزو تربط فيه الخيل ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة فالرباط جهاد النفس، والمقيم فى الرباط مجاهد نفسه، واجتماع أهل الربط إذا صح على الوجه الموضوع له الربط، وتحقق أهل الربط بحسن المعاملة ورعاية الأوقات وتوقى ما يفسد الأعمال ويصحح الأحوال عادت البركة على البلاد والعباد. وشرائط سكان الرباط قطع المعاملة مع الخلق، وفتح المعاملة مع الحق، وترك الاكتساب اكتفاء بكفالة مسبب الأسباب وحبس النفس عن المخالطات، واجتناب التبعات ومواصلة الليل والنهار بالعبادة متعوضًا بها عن كل عادة. والاشتغال بحفظ الأوقات وملازمة الأوراد وانتظار الصلوات واجتناب الغفلات ليكون بذلك مرابطًا مجاهدًا[1].

والرباط هو بيت الصوفية ومنزلهم، ولكل قوم دار، والرباط دارهم وقد شابهوا أهل الصفة فى ذلك، فالقوم فى الرباط مرابطون متفقون على قصد واحد، وأحوال متناسبة ووضع الرباط.

وبالإضافة إلى الربط ذكر المقريزى الزوايا والجواسق والمصليات، ووصف أسواق مصر وأن القصبة وحدها كانت تحتوى على اثنى عشر ألف حانوت، وذلك على امتداد الحسينية مما يلى الرمل إلى المشهد النفيسى، وقد أدرك المقريزى هذه الأسواق فقال: يعجز العاد عن إحصاء ما فيها من الأنواع فضلاً عن إحصاء من فيها من الأشخاص. ويضيف: سمعت الكافة ممن أدركت يفاخرون بمصر سائر البلاد ويقولون يرمى بمصر فى كل يوم ألف دينار ذهبًا على الكيمان والمزابل.

وعدد المقريزى الأسواق التى وصفها ومنها سوق باب الفتوح، وسوق المرحلين، وسوق حارة برجوان وهو من الأسواق القديمة، وكان يعرف قديمًا بسوق أمير الجيوش، وسوق الشماعين، وكان يعرف قديمًا بسوق القماصين، وسوق الدجاجين

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٤١٢.

وسوق الجوخيين وهو معد لبيع الجوخ المجلوب من بلاد الفرنج، وسوق الحلاويين، وسوق الشوايين وغيرها[1].

وأقيمت في القاهرة في عصر المماليك الخانات الكبيرة والوكالات التي تحولت إلى أسواق للتجار وكان من أشهرها خان مسرور الذي أدركه المقريزي ويصفه لنا بقوله: «وقد أدركت فندق مسرور الكبير في غاية العمارة تنزله أعيان التجار الشاميين بتجاراتهم، وكان فيه أيضًا مودع الحكم الذي فيه أموال اليتامى والغياب، وكان من أجل الخانات وأعظمها»[2].

واستمر ذلك الخان عامرا ترد إليه تجارات الشام حتى غزو تيمور لنك لبلاد الشام فقلت التجارة، وقلت مهابة الخان وزالت حرمته وتهدمت عدة أماكن منه واستولى عليه القضاة.

وكان بالقاهرة أيضا فندق بلال المغيثي الذي أنشأه الأمير الطواشي أحد خدام الملك المغيث صاحب الكرك، خدم الأمير عددا من السلاطين وكان كثير البر والخيرات، توفي حين خرج مع الملك الناصر محمد بن قلاوون عام ٦٩٩ هـ/ ١٢٩٩ م لقتال التتار.

وكانت وكالة قوصون ينزلها التجار ببضائع من الشام من الزيت والسيرج والصابون والدبس والفستق والجوز واللوز والخرنوب والرب وموضعها بين الجامع الحاكمي ودار سعيد السعداء. وقد كان بهذه الوكالة عدد من المخازن كان الواحد منها يؤجر بخمسة دراهم، توضع فيه البضائع المتنوعة التي كان العتالون يتناقلونها لمن يشتريها.

وكان يعلو تلك الوكالة عدد من الرباع اشتملت على ثلاثمائة وستين بيتا سكنها حوالي أربعة آلاف نفس ما بين الرجال والنساء والأطفال، مما يعطي فكرة عن عدد السكان في بعض أحياء القاهرة.

ومن أشهر الفنادق في تلك المرحلة فندق دار التفاح تجاه باب زويله، وكانت الفاكهة ترد إليه على اختلاف أنواعها مما ينبت في ضواحي مدينة القاهرة، بالإضافة إلى التفاح والكمثرى والسفرجل الواصل من بلاد الشام.

---

(١) المقريزي: الخطط جـ ٢ ص ص ٩٤، ١٠٠.

(٢) المقريزي: الخطط جـ ٢ ص ٩٢.

وكانت الفاكهة تباع أولا فى وكالة قوصون ثم تنقل إلى دار التفاح أو سائر أسواق القاهرة.

ويصف المقريزى كيف تأنق الباعة فى تنضيد الفاكهة مما يسر الناظرين فكانوا يضعون الزهور بين الفاكهة لتضيف شذا عطرا إلى عطرها.

وخان الخليلى أحد تلك الخانات الهامة، أنشئ بخط الزراكشة العتيق، كان موضعه تربة القصر تحوى قبور خلفاء الفواطم وتعرف بتربة الزعفران. أنشأه الأمير جهاركس الخليلى أخو الملك الظاهر برقوق، وأوقف الخان على عمل الخبز يفرق بمكة لكل فقير رغيفين فى اليوم، واستمر الحال على ذلك حتى عام ٨٠٦ هـ/ ١٤٠٣م حيث ارتفعت الأسعار بمصر وتغيرت نقودها فتغير هذا التقليد واستبدل بمال يحمل إلى مكة ويوزع على فقرائها.

وقد كان ازدهار القاهرة عمرانيًا عظيمًا فى عهد المماليك، وقد أثار هذا العمران إعجاب الرحالة الأوروبيين الذين زاروا القاهرة فى رحلتهم إلى بيت المقدس.

ويصف فون هارف الرحالة الألمانى الذى زار القاهرة فى عصر الناصر محمد يقول: كان يوجد بالقاهرة أربعة وعشرون شارعا رئيسيا، وأن هذه الشوارع ترش بالماء ثلاث مرات يوميًا، ولكل شارع طباخ ومخبزان أو أكثر حسب طول الشارع، وأن أكثر الناس لا يطبخون فى بيوتهم بل يشترون من المطابخ العامة والمخابز، ويباع الدجاج المسلوق فى الشوارع، ويوجد منه الكثير بالقاهرة، كما أنهم يأكلون لحم الضأن والجمال، وتوجد بالقاهرة حمامات كثيرة للرجال والنساء، وأرضية هذه الحمامات وجدرانها مكسوة بالرخام، ويسخن الماء فى غلايات كبيرة، ثم ينقل بواسطة الأنابيب إلى الأحواض[1].

ولقد أبدع المقرى وقد سأل ابن خلدون عن القاهرة فقال: من لم يرها لم ير عز الإسلام.

القيروان

أراد عقبة بن نافع الفهرى أن يقيم مدينة إسلامية فى إفريقية لتكون قاعدة للإسلام، ومركزا للحضارة الإسلامية. وقد فكر عقبة فى اختيار موقع المدينة لتكون

(١) عبد الرحمن زكى: القاهرة تاريخها وآثارها. ص ص ١٧٩، ١٨٠.

بمأمن من غارات الروم عليها ومن ثم لم يبن مدينته على الساحل وإنما جاء موقعها داخليا.

ويذكر ابن عذارى المراكشي أن أصحاب عقبة أشاروا عليه أن يتخذ عاصمته في إفريقية قريبة من البحر حتى يتسنى لهم الجهاد والرباط، لكن عقبة رد عليهم قائلا: إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها صاحب البحر إلا وقد علم به[1].

ولقد كان عقبة بن نافع موفقا في اختياره لموقع المدينة، فبعدها عن البحر جعلها بمأمن من غارات الأساطيل البيزنطية، كما أن موقعها الداخلي بالقرب من الأراضي السبخة جعلها تشرف على المراعي التي يسهل على إبل ودواب المسلمين ارتيادها.

وتجدر الإشارة إلى أن عقبة كان متأثرا في اختياره لموقع قيروانه بما تعرضت له الإسكندرية من اعتداءات بحرية من قبل البيزنطيين، كما أنه لايزال يذكر مدى الجهد الذي بذله عمرو والأساطيل الإسلامية في الدفاع عنها، وموقعة ذات الصواري التي لم يكن بعيد العهد بها[2].

وتقدم المصادر الإسلامية أخبار بناء القيروان محاطة بأسطورة طريفة، ومن بين المصادر التي حفظت لنا هذه الأسطورة الكامل في التاريخ وفيه يقول ابن الأثير: إن معاوية بن أبي سفيان عزل معاوية بن حديج عن إفريقية واستعمل عليها عقبة بن نافع الفهري، وكان مقيما ببرقة وزويلة منذ فتحها عمرو بن العاص، وله في تلك البلاد جهاد وفتوح، فلما استعمله معاوية سير إليه عشرة آلاف فارس، فدخل إفريقية وانضاف إليه من أسلم من البربر فكثر جمعه ووضع السيف في أهل البلاد لأنهم كانوا إذا دخل إليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الإسلام، فإذا عاد عنهم نكثوا وارتد من أسلم، ثم رأى أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا ثورة تكون من أهل البلاد فقصد موضع القيروان. وكان أجمة مشتبكة بها من أنواع الحيوان

---

(١) ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار المغرب جـ ١ ص ١٩٨. وقارن: ياقوت الحموى: معجم البلدان. جـ ٤ ص ٤٢٠.

(٢) عبد العزيز سالم: المغرب. العصر الإسلامي ص ٢٠١.

والسباع والحيات وغير ذلك فدعا الله وكان مستجاب الدعوة، ثم نادى: أيتها الحيات والسباع إنا أصحاب رسول الله ﷺ، ارحلوا عنا فإنا نازلون ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه. فنظر الناس ذلك اليوم إلى الدواب تحمل أولادها وتنتقل، فرآه قبيل كثير من البربر فأسلموا. وقطع الأشجار. وقام ببناء المدينة فبنيت، وبنى المسجد الجامع، وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم، وكان دورها ثلاثة آلاف باع، وتم أمرها سنة خمس وخمسين وسكنها الناس[1].

ويروى ابن عبد الحكم أن عقبة ركب والناس معه حتى أتى موضع القيروان اليوم وكان واديًا كثير الأشجار كثير القطف تأوى إليه الوحوش والسباع والهوام، ثم نادى بأعلى صوته: يا أهل الوادى ارتحلوا رحمكم الله فإنا نازلون، نادى بذلك ثلاثة أيام، فلم يبق من السباع شيء ولا الوحوش والهوام إلا خرج، وأمر الناس ببناء مساكنهم، ونقل الناس من الموضع الذى كان معاوية بن حديج نزله إلى مكان القيروان اليوم وركز رمحه وقال هذا قيروانكم[2].

بنى عقبة بن نافع قيروانه مكان حصن قديم للروم، وكانت القيروان رابع مدينة إسلامية يؤسسها المسلمون الفاتحون فى الأمصار وقد بدأ البناء عام ٥٠ هـ/ ٦٧٠ م وانتهى عام ٥٥ هـ/ ٦٧٥ م.

ولم تكن القيروان أول مدينة يقيمها المسلمون فى أفريقيا فتذكر المصادر أن معاوية ابن حديج اختط مدينة عرفت بالقرن، وذلك قبل أن يؤسس عقبة بن نافع قيروانه، وقد استقر معاوية بن حديج أثناء مقامه فى إفريقية وحفر عندها آبارًا لاتزال تحمل اسمه وتعرف بآبار حديج. ولم تزدهر مدينة معاوية بن حديج بل انحسر وجودها فى ظل القيروان عاصمة إفريقية التى عدت من الحواضر الهامة فى الإسلام.

اهتم عقبة بن نافع بالعاصمة الجديدة وكان المسجد الجامع هو أول ما اختط فيها، وقد وصف المؤرخون اهتمام عقبة بالمسجد الجامع بالقيروان حتى إنهم قالوا: إن عقبة

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ ٣ ص ٤٦٦.

(٢) ياقوت الحموى: معجم البلدان: جـ ٤ ص ٤٢١.

بن نافع بنى مسجدًا له مدنية[1]. وقد ازدهرت المدينة حتى أصبحت عاصمة المغرب كله ووصفها الجغرافى ابن حوقل فقال: إنها أعظم مدن المغرب وسجل إعجابه بعمارة مبانيها وحسن أسواقها ورواج تجارتها ويسار أهلها.

والقيروان أحد المراكز الحضارية الإسلامية الهامة التى أسهمت فى نشر الإسلام فى إفريقيا، ومنها انتقل إلى أوروبا، ولقد كانت القيروان فى العصر الأموى قاعدة حضارية واستراتيجية هامة حتى إن الأمويين خشوا نفوذ أهلها وربما خشوا نفوذ عقبة بن نافع بها، وقد أكد ذلك عدد من المؤرخين ودللوا على رأيهم بعزل عقبة بن نافع عن ولاية إفريقية.

ويقول ابن الأثير: إن معاوية بن أبى سفيان حين استعمل على مصر وإفريقية مسلمة بن مخلد الأنصارى قام مسلمة باستعمال مولى يقال له أبو المهاجر بن أبى دينار على أفريقية، فقدم إفريقية وأساء عزل عقبة واستخف به، فسار عقبة إلى الشام وعاتب معاوية على ما فعله أبو المهاجر، فاعتذر له معاوية ووعده بإعادته إلى عمله، إلا أن معاوية توفى قبل أن يعود عقبة إلى ولايته بإفريقية، ولما تولى يزيد خلافة المسلمين أعاد عقبة إلى القيروان، وكان ذلك عام ٦٢ هـ/ ٨١م[2].

وكان أبو المهاجر لما عزل عقبة بن نافع كره أن ينزل بقيروانه فاختط مدينة جديدة تبعد عن القيروان بمقدار ميلين حيث أمر الناس بالتحول عن القيروان بل أمعن فى الإساءة إلى مدينة عقبة بأن أمر الناس بإحراقها، وهذا تقليد غريب دخيل على المسلمين، وإساءة لا تغتفر من أبى المهاجر إن كان قد فعل وإن صدقت هذه الرواية.

ولما أعيد عقبة إلى ولاية إفريقية بعد أن اعتذر له معاوية وكرمه يزيد، وقيل: إن مسلمة بن مخلد الأنصارى اعتذر له عما صدر من ابن أبى دينار، وانتقم من أبى المهاجر وأوثقه فى الحديد وصادر أمواله.

---

(١) لمزيد من المعلومات عن المسجد الجامع بالقيروان قارن: أحمد فكرى المدخل إلى مساجد القاهرة ص ٢٠٣، ٢٠٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ. جـ ٣ ص ٤٦٦.

ولاشـك أن القيروان قد عانت الإهمال في ولاية أبى المهاجر، فقد تم إخلاؤها من العسـكر، وانتقلـت الإدارة والحكومة إلى عاصمته الجديـدة بما يترتب على ذلك من ركود الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية الفكرية.

وعـاد للقيروان بهاؤها ورونقها بعودة عقبة بن نافـع فقام بتجديد مبانيها وترميم مـا احتاج منهـا إلى ترميم، وأمر الناس بالعودة إلى الحياة فيها فعادت الحياة إليها، وانتعشـت الأحوال الفكرية والاجتماعية كما نشـطت المعاملات الاقتصادية، وتجدد الرباط وأحيا الجهاد.

ويذكر ابن عذارى أن عقبة بن نافع ركب فى وجوه عسكره ومن معه من الصحابة والتابعـين ودار بهم حول القـيروان وهو يدعو لها ويقول: يا رب املأها علمًا وفقها، واملأها بالمطيعين لك، واجعلها عزًا لدينك وذلا على من كفر بك[1].

وقد عاشت القيروان أحداث استكمال فتح المسلمين للمغرب، وصراعهم مع البربر وصمودهم أمام خيلهم وردتهم وتحالفهم مع البيزنطيين بالإضافة إلى تحديات الظروف الطبيعيـة لبـلاد المغرب. وفى القيروان لقـى عقبة بن نافع ربه شـهيدًا مجاهدًا فى سبيل الله فى ٦٣ هـ/ ٦٨٢ م. وعندما اضطربت الأحوال فى البلاد واضطربت إفريقية وانقلبت نارًا تقوض سلطان العرب انسحب جيش المسلمين من القيروان إلى برقة لكن سـلطان الإسلام والمسلمين اسـتمر، وخاصة بعد أن عادت القيروان مرة أخرى إليهم حين اسـترجعها زهير بن قيس لتواصل القيام بدورها الحضارى والفكرى الذى ارتبط باسمها منذ نشأتها فى القرن الأول الهجرى.

قرطبة

تعتبر مدينة قرطبة من أقدم المدن فى شبه الجزيرة الأيبيرية، وكانت تعرف باسم كردوبا Carduba، وقد حظيت بقسـط عظيم من الشـهرة فى العصور القديمة فيذكر المقرى أن بناءها كان قبل ميلاد المسيح بثمان وثلاثين سنة[2].

---

(١) عبد العزيز سالم: المغرب الكبير. العصر الإسلامى ص ٢٢١، ٢٢٢.

(٢) المقرى: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. جـ ١ ص ٢٦.

اتخذ المسلمون الفاتحون للأندلس قرطبة دارًا للإمارة منذ عام ٩٧ هـ/ ٧١٢ م واهتم بها ولاة الأندلس كما اهتم بها الخلفاء الأمويون فى الشام، فيذكر المقرى عن ابن حيان أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أمر ببناء جسر قرطبة الشهير على النهر الأعظم بالمدينة ذلك الجسر الذى لم يعرف فى الدنيا مثله[1].

وتعد ولاية عبد الرحمن الداخل للأندلس نقطة تحول فى تاريخ المدينة فقد أولاها عناية واهتمامًا فائقين حتى غدت قرطبة مركزا من أهم مراكز الإشعاع الحضارى فى أوروبا. ووصف المؤرخون الأندلسيون قرطبة أبدع وصف وأجمله وسجلوا مدى إعجابهم بحضارة ورونق حاضرة المسلمين فى الأندلس. فتحدث عنها الحميرى والحجارى والمقرى والشريف الإدريسى ووصفوا آثارها القديمة وآثارها الإسلامية، فيقول المقرى: وفيها قال بعض علماء الأندلس:

بأربع فاقت الأمصار قرطبة ... منهن قنطرة الوادى وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة ... والعلم أعظم شيء وهو رابعها

ولقد تفوقت قرطبة على سائر مدن الأندلس، وتمتعت فى ظل بنى أمية بحياة علمية وفكرية رفيعة، كما نالت حظا وافرا من العناية والاهتمام من حكام الأندلس[2].

ويصف المقرى مدينة قرطبة فيقول: قال الحجارى فى «المسهب»: كانت قرطبة فى الدولة المروانية قبة الإسلام ومجتمع أعلام الأنام، بها استقر سرير الخلافة المروانية، وفيها تمخضت خلاصة القبائل المعدية واليمانية، وإليها كانت الرحلة فى الرواية إذ كانت مركز الكرماء ومعدن العلماء، وهى من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد، ونهرها من أحسن الأنهار مكتنف بديباج المروج مطرز بالأزهار، تصدح فى جنباته الأطيار وتنعر التواعير ويبسم النوار، وقرطاها الزاهرة والزهراء، حاضرتا الملك، وأفقاه النعماء والسراء[3].

ووصف المقرى أهل قرطبة فقال: قال ابن سعيد: ولأهلها رياسة ووقار، لا تزال سمة العلم والملك متوارثة فيهم إلا أن عامتهم أكثر الناس فضولا، وأشدهم تشغيبا،

---

(١) المقرى: نفح الطيب، جـ ١ ص ص ١٤٥، ١٤٦.

(٢) انظر عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس: ص ٢٩٥.

(٣) المقرى: نفح الطيب. جـ ١ ص ١٤٧.

ويضرب بهم المثل من أهل الأندلس فى القيام على ملوكهم، والتشنيع على الولاة وقلة الرضا بأمورهم[1].

أما قرطبة حاضرة الخلافة الأموية فى الأندلس فقد أسهب فى وصفها ابن سعيد فى كتابه «الحلة المذهبة فى حلى ممالك قرطبة» الذى اختصر المقرى أجزاء منه ضمنها كتاب نفح الطيب.

وذكر أن ابن سعيد قسم كتابه إلى خمسة كتب: الكتاب الأول: النعم المطربة فى حلى حضرة قرطبة، والكتاب الثانى: كتاب الصبيحة الغراء فى حلى حضرة الزهراء، أما الثالث فكان: كتاب البدائع الباهرة فى حلى حضرة الزاهرة، والكتاب الرابع كان: كتاب الوردة فى حلى مدينة شقندة، والخامس كان: الجرعة السنية فى حلى كورة وزغة.

وقد أورد ابن سعيد مساحة المدينة، وذكر أرباضها وجبايتها وضبط اسمها ووصف العلماء لها وذكرهم محاسنها: ثم ذكر سمات أهلها وقصورها وأبوابها ومنتزهاتها فجاء كل ذلك بديعًا رائعًا يليق بحاضرة المسلمين فى الأندلس.

أما مساحتها فقال: إن دورها يبلغ ثلاثين ألف ذراع، ويقول المقرى وقال غيره: إن تكسيرها ومساحتها التى دار السور عليها دون الأرباض طولا من القبلة إلى الجوف ألف وستمائة ذراع، واتصلت العمارة بها أيام بنى أمية ثمانية فراسخ طولاً وفرسخين عرضًا، وذلك من الأميال أربعة وعشرون فى الطول وفى العرض ستة، وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين بطول ضفة الوادى الكبير[2].

وفى أرباضها قال: وعدد أرباضها أحد وعشرون، وفى كل ربض منها من المساجد والأسواق والحمامات ما يقوم بأهله، ولا يحتاجون إلى غيره. وبخارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية فى كل واحدة منها منبر وفقيه مقلص[3] تكون الفتيا فى الشرائع والأحكام له. وكان لا يضع القالص على رأسه إلا من حفظ الموطأ، وقيل من حفظ عشرة آلاف

---

(١) المقرى: نفح الطيب، جـ ١، ص ١٤٧.

(٢) المقرى: نفح الطيب. جـ ٢، ص ٦.

(٣) مقلص: أى لابس القلنسوة.

حديث عن النبى ﷺ وحفظ المدونة، وكان هؤلاء المقلصون المجاورون لقرطبة يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة بها ويسلمون عليه ويطالعونه بأحوال بلدهم[1].

وعدد المقرى أرباض المدينة عن ابن بشكوال فقال: ربض شقندة، وربض منية عجب، وربط حوانيت الريحان وربض مسجد الكهف، وربض بلاط مغيث، وربض مسجد الشفاء، وربض حمام الألبيرى، وربض مسجد السرور، وربض مسجد أم سلمة، وربض الرصافة، وربض شيلار، وربض قرن بريل، وربض البرج، وربض منية عبد الله، وربض منية المغيرة، وربض الزاهرة، وربض المدينة العتيقة[2].

وعن جباية المدينة ذكر المقرى أنها كانت فى أيام ابن أبى عامر ثلاثة آلاف ألف دينار بالإنصاف وقيل خلاف ذلك[3].

وأما عن ضبط اسم المدينة فذكر عن كتاب فرحة الأندلس أو فرجة الأندلس أن قرطبة اسم ينحو إلى لفظ اليونانيين وتأويله القلوب المشككة.

ووصف العلماء قرطبة فقالوا: هى مدينة أزلية من بنيان الأوائل، طيبة الماء والهواء، وأحدقت بها البساتين والزيتون والقرى والحصون والمياه والعيون من كل جانب، والمحرث العظيم الذى ليس له فى بلاد الأندلس نظير ولا أعظم منه بركة.

وقال الرازى: قرطبة أم المدائن وسرة الأندلس وقرارة الملك فى القديم والحديث والجاهلية والإسلام، ونهرها أعظم أنهار الأندلس وبها القنطرة التى هى إحدى غرائب الأرض فى الصنعة والإحكام، والجامع الذى ليس فى بلاد الأندلس والإسلام أكبر منه[4].

ومن سمات ومحاسن أهلها ظرف اللباس، والتظاهر بالدين، والمواظبة على الصلاة، وتعظيم أهلها لجامعها الأعظم، وكسر أوانى الخمر حيثما وقع عين أحد من أهلها عليها، والتستر بأنواع المنكرات، والتفاخر بأصالة البيت وبالجندية وبالعلم، وهى

---

(١) المقرى: نفح الطيب. جـ ٢ ص ٦.

(٢) المقرى: نفح الطيب. ص ٧.

(٣) المقرى: المصدر السابق. جـ ٢ ص ٧.

(٤) المقرى: نفح الطيب جـ ٢ ص ٨.

من أكثر بلاد الأندلس كتبًا، وأشـد الناس اعتنـاء بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم أداة التعين والرياسة حتى أن الرئيس منهم الذى لا تكون عنده فعرفة يحتفل بها فى أن يكون فى بيته خزانة كتب، وينتخب فيها ليس إلا لأن يقال: فلان عنده خزانة كتـب، والكتاب الفلانى ليس عند أحد غيره والكتاب الذى هو بخط فلان قد حصله وظفر به[1].

ومن قصورها المشهورة الكامل والمجدد والروضة والزاهر والمعشوق والمبارك والرشيق وقصر السرور والتاج والبديع[2].

أمـا قصر الخلافة فقد وصفه ابن بشـكوال فقال: هو قصـر أولى تداوله ملوك الأمم من لدن عهد موسـى النبى صلى الله على نبينا وعليه وسـلم، وفيه من المبانى الأولية والآثـار العجيبة لليونانيين ثم للروم والقوط والأمم السـالفة ما يعجز عنه الوصف، ثم ابتدع الخلفاء من بنى مروان منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها فى قصرها البدائع الحسان، وأثروا فيه الآثار العجيبة والرياض الأنيقة وأجروا فيه المياه العذبة المجلوبة مـن جبال قرطبة على المسـافات البعيدة، وتمونوا المؤن الجسـيمة حتى أوصلوها إلى القصر الكريم، وأجروها فى كل سـاحة من سـاحاته وناحية من نواحيه فى قنوات الرصـاص تؤديها منها إلى المصانع صور مختلفة الأشـكال من الذهب الإبريز والفضة الخالصة والنحاس المموه إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة[3].

أما أبواب قرطبة فهى سبعة، باب القنطرة ويعرف ببابه الوادى أو باب الجزيرة الخضراء وهو على النهر، وباب الحديد ويعرف بباب سرقسطة أو باب عبد الجبار، وباب طليطلة وباب طلبيرة وهو باب ليون أو باب عامر القرشى، وباب الجوز ويعرف بباب بطليموس، وباب العطارين ويعرف بباب اشبيلية[4].

---

(١) المقرى: المصدر نفسه جـ٢ ص ١٠.

(٢) المصدر السابق جـ٢ ص ١٢.

(٣) المقرى: نفح الطيب جـ٢ ص ١٣.

(٤) المقرى: نفح الطيب. جـ٢ ص ص ١٢، ١٣.

وأبدع المؤرخون فى وصف متنزهات قرطبة فذكر ابن سعيد الرصافة والدمشق ومرج الخز أو المرج النضير وفيه نظم الشعراء الشعر:

لله يـوم بمـرج الخـز طاب لنـا ... فيه النعيم بحيث الروض والنهر
وللإوز على أرجـائه لعـب ... إذا جرت بددت ما بيننا الدرر
والشمس تجنح نحـو البين مائلة ... كأن عاشـقها فى الغرب ينتظر
والكأس جـائلة باللب حـائرة ... وكلنا غفـلات الدهـر نبتـدر

ومن متنزهات قرطبة المشهورة فحص السرادق والسد، وقد تبارى الشعراء والكتاب فى وصفها والحديث عن روعة الطبيعة وجمالها وجلال صنعة الخالق فيها.

وعاشـت قرطبة منارة للعلم والفكر الإسـلامى أسـهم علماؤها فى كثير من مجالات العلوم والآداب، وأثروا - دون شـك - فـى التطور العلمى والفكرى فى أوروبا مقدمة لعصر النهضة، وظلت قرطبة تقوم بهذا الدور الحضارى العظيم إلى أن سقطت الخلافة واندثرت قرطبة باسـترداد المسـيحيين لبلاد الأندلس، وحين دخلوا حاضرة الخلافة الإسـلامية حولوا مسـجدها الجامع الكبير إلى كنيسـة لا تزال تحمل اسمه فتعرف بكنيسة الجامع.

ولا تزال الآثار التى تركتها الحضارة الإسلامية بإنجازاتها المادية والمعنوية شاهدا على عبقرية العقلية الإسلامية، ودليلا على قدرة المسلمين على الريادة العقلية والعلمية والفنية.